مسابقة الفلسفة لطلاب السنة التوجيهية (٦) :

(٢) مشكلات الفلسفة (١)

للأستاذ كمال الدسوقي

يسرني ألا أستطيع أن أحدثكم في « مشكلات الفلسفة » في أكثر من هذا المقال ؛ قبل أن يفجأنا الامتحان — لتواجهوه مواجهة الأبطال الكماة — فقد أنسانا حديث ابن سينا مر الوقت أن نذكره ؛ وما أكثر ما كنت أحب أن أقول في برتراند رسل!

حسبكم في تاريخ حياة هذا الفيلسوف العظيم وفي كتاباته ما جاء بمقدمة الترجمة العربية لكتابه الذي بين أيديكم ، فلن تظفروا في حياة فيلسوف معاصر بأكثر من هذا القدر ، إذ قلما تعرف أقدار الرجال وهم ما يزالون أحياء ؛ وإن كان فيلسوفنا ليرى مجده وعظمته حياً ...

والترجمة التي لديكم لهذا الكتاب سهلة واضحة الأسلوب لا تخلو من روح المؤلف في كثير من المواضع ، فهي حسنة ومؤدية الغرض ، ومُغنية عن النص الأصلي إن لم تجدوه ؛ فيما عدا الكثير من الأخطاء المطبعية ، وبعض السقطات النحوية واللغوية التي يسهل تداركها من جانب القارئ .

والمحاضرات التي جمعها رسل في كتابه باسم « مشكلات الفلسفة » تمثل بدء اتجاهه المنطقي والمذهبي أولى من أن تعرض صورة ناضجة للمذهب في نموه واكتماله . لأنه من أوائل كتبه الفلسفية . ويمكن جمع مشكلاته تحت رؤوس ثلاثة . فالمحاضرات الأربعة الأولى تعالج فلسفة الوجود ، والأربعة الأخيرة تتناول مشكلة الحقيقة ومدى ما تصل إليه المعرفة الفلسفية ، والفصول الوسطى — وهي القسم الأكبر — تعرض لنظرية المعرفة بمختلف أنواعها . وليست الأقسام محددة المعالم ، بل تختلط فيها هذه المباحث وغيرها اختلاطاً يظهرك على روح رسل الفيلسوف الرياضي المنطقي المجدد . ولنتناول هذه المشكلات في سرعة وإيجاز:

في الفصل الأول محاولة للتفرقة بين الظاهر appearance والحقيقة reality بين معطيات الحس sense data والشيء الطبيعي الحقيق physical object الذي هو غير ذاتنا ، والذي لا يتوقف وجوده على إدراكنا . وأهم ما في هذا الفصل غير هذا تقرير أن الإدراك للمائدة مثلاً لا يتم بالحواس مباشرة ، بل هو استدلال واستنتاج نستخلصهما مما نحس ؛ وإلا لم نستطع أن نتصور وجود المائدة ما لم ندركها ، ووجوع القطة ما لم نرها في أمكنة مختلفة (ص ٢٣) .

أما الفصل الثاني فيتصدى لبحث وجود المادة ، ويأخذ بمنهج ديكارت الذي يبدأ بالشك للوصول إلى اليقين ، وبإثبات الذات لإثبات الموضوع إلا أن الذات التي يثبتها ديكارت لا يلزم أن تكون دائمة ؛ بل قد تكون الأنا المدرك في لحظة إدراكه . وإذا صح أن أفكارنا ومشاعرنا الخاصة ، وكذلك الأحلام والأوهام والإدراكات الحسية العادية هي ما يتصف باليقين الفطري ؛ فقد لا تكون هذه رموزاً وعلامات للشيء الطبيعي المراد إثباته . وهنا نقف حائرين مع المؤلف بين نوعين من البرهان : الإدراك العادي البسيط يظهرنا على أن المائدة وغطاءها وأدوات الطعام فوقها ليست مجرد معطيات حس لا حقيقة لها ، وحين أشتري المائدة لا أشتري مجموعة معطيات حس صاحبها ؛ بل شيئاً حقيقياً ، وحين تتفق مجموعة من الناس على رؤية مائدة — مع فارق بسيط — لا يتفقون إلا على وجود حقيقي — بينما المنطق يرى أن ليس ما يمنع من افتراض أن العالم يتكون — كما عند بركلي والمثاليين عموماً — من ذاتي وأفكاري وشعوري وإحساسي ، وما عدا ذلك فهو وهم وخيال ؛ وأن الحياة فانها حلم نبدع فيه بأنفسنا كل ما نتمثله أمامنا ؛ وشهادة الآخرين كذلك ليست حجة علينا ، فقد يكون وجودهم أنفسهم من صنعنا ، وهم حلم يتراءى لنا ... وينتهي هذا الفصل بالأخذ بالإدراك العادي البسيط القائل بالنظرية الطبيعية ، ووجود أشياء لا يتمد وجودها على إدراكنا . ونحن مهيأون للاعتقاد بها بالغريزة ، ولا نستطيع رفع هذا الاعتقاد حتى يقوم الدليل على خطئه وتناقضه مع غيره . وإذا كان من بين هذه الاعتقادات الغريزية ما هو أقوى ، وما هو شبه غريزي دخيل ؛ فإن مهمة الفلسفة أن تبحث أيّ هذه البديهيات والمسلمات أولى بالقبول أو الرفض أو التعديل . وإلى أن تنهض بهذا التنظيم والفحص النقدي يجب أن نأخذ بهذه المعتقدات في شيء من الحيطة والشك .

وإذ ثبت أن الظاهر الحسى دليل على الحقيقة الموضوعية يشرع رسل فى بحث ماهية المادة ، فيفند التفسير العلمى الفرضى الناقص من حيث نظرته للضوء والصوت وغيرهما بوصفها حركات تموجية ؛ مع أنها فى حقيقتها أكثر من هذا : إدراك نحسه بالسمع والبصر ولا نستطيع وصفه أو نقله للأعمى أو الأصم . وينقد كذلك نظرة العلم إلى المكان والزمان العامين المحايدين للشىء الحقيق (المكان الطبيعى والزمان العام كما يسميهما) بصرف النظر من مكاننا وزماننا الخاصين كمدركين للأشياء الطبيعية فى المكان والزمان العلميين ... يريد رسل أن يخلص من هذا مرة أخرى إلى توكيد التفرقة بين الشىء الطبيعى فى المكان الطبيعى والزمان العام ؛ فى مقابل معطيات الحس فى مواضع مكانية خاصة وزمان تقديرى خاص (والأولى منها لا نعرفها فى ذاتها ؛ بل نعرف نوع تنظيمها نتيجة علاقاتها المكانية) ، وإلى تقرير أن هذه الخواص والعلاقات القائمة فى مقابل الأشياء الطبيعية ومعطيات الحس هى ما يمكن معرفته ؛ أما الماهية فتبقى مجهولة ؛ برغم أن معطيات الحس إن لم تكن هى الأشياء الطبيعية على حقيقتها ؛ فإنها تشبهها قليلا أو كثيراً .

أفليس ثمة إذن دليل على أن للمادة الحقيقية التى سلمنا بها ماهية معلومة ؟ يرى الفلاسفة المثاليون — وعلى رأسهم بركلى Berkeley أن كل وجود فهو عقلى — حتى المادة ذاتها — ويدفعون عن مذهبهم بأدلة مستمدة فى معظمها من نظرية المعرفة والشروط التى يجب توافرها فى الأشياء لنعرفها . وعندهم أن وجود الشىء هو إدراكه ، وحين يقال لهم إن الأشياء توجد حتى ولو لم ندركها يقولون : إن الله يدركها حينئذ ، وهو سر وجودها . فما يسميه رسل « الشىء الطبيعى » هو عندهم « أفكار فى عقل الله » ، وما يسميه معطيات الحس هو مشاركتنا نحن الجزئية فى هذه الأفكار . ويأخذ رسل على هذا المذهب (ويحسن أن ترجعوا إلى مذهب بركلى على الأقل لتقفوا على نموذج من المذهب المثالى فى مصادره) :

١ — أن الذى فى عقولنا هو فكرة الشىء لا الشىء نفسه .

٢ — يثير بركلى مشكلة أخرى هى : ما يُعرف مباشرة يجب أن يكون فى العقل ؛ بدلا من مشكلته : وجود الشجرة ولو لم تدركها .

٣ — فكرة المائدة مثلا يمكن تحليلها إلى فعل إدراك (هو عقلى لا شك) وشىء مدرَك (لا يمكن أن يكون عقلياً بحال) . وبالجملة يرى رسل أن بركلى قد خلط بين الشىء موضوع الإدراك وفعل الإدراك ذاته ، وأخذ كلمة فكرة notion بمعنى الأشياء المدركة ، فجعل المدرَك والإدراك شيئاً واحداً ؛ بينما التمييز بينهما ضرورى ، لأن قدرة العقل إنما تقوم فى تحصيل معرفة خارج ذاته ؛ أى إدراك ما ليس بعقلى . فهو قد أخطأ فى الشكل والموضوع . أما النظرية التى تقول إن ما يثير أهمية لدينا لا يمكن أن يكون حقيقياً ، وبالتالى لا يمكن أن نعرف أنه يوجد شىء نحن لا نعرفه ؛ فهى نظرية واضحة البطلان تقوم على الرغبة والمنفعة وتفترض أن المادة ما لم تكن مكونة من عقول وأفكار عقلية فهى أمر مستحيل ووهم مجرد . وينتهى رسل هنا إلى تحليل ألفاظ الفعل « يعرف » فى لغات مختلفة ليخلص من ذلك إلى نوعين من المعرفة : معرفة الحقائق والمعرفة المباشرة .

وبذا نكون قد وصلنا إلى القسم الثانى فى مشاكل المعرفة وهو أهم أقسام هذا الكتاب ؛ والمعرفة فيه نوعان : معرفة أشياء ومعرفة حقائق . أما الأشياء فمنها ما نعرفه مباشرة بإدراك الشىء بلا واسطة من عملية استدلال أو حقائق معلومة ؛ كمعطيات حسنا من المائدة من لون وشكل وصلابة . . وما نعرفه بالوصف للمائدة ذاتها كشىء طبيعى بسبب معطيات الحس السابقة ؛ وصف لحقائق شىء غير معلومة لدينا ماهيته على الإطلاق . فما نعرفه مباشرة من الأشياء الجزئية هو فى الدرجة الأولى « معطيات الحس » ولكن لابد من معرفة الحقائق المجردة التى تسمى كليات :

٢ — فهناك الذاكرة مصدر كل معرفة بالماضى .

٣ — وهناك ثانياً التأمل الباطنى والشعور الذاتى بالفاعلية الشخصية ثم بفاعلية الآخرين قياساً عليها — مما لا يوجد لدى الحيوان ؛ أى الشعور بالذات العارفة المدركة فى مقابل إدراكاتها الخارجية — مهما كانت الذات متغيرة — شعوراً مباشراً (الفقرة الثالثة ص ٤٦ فى غاية الأهمية فى تلخيص هذا) .

٤ — وأخيراً المعرفة المباشرة للكليات والأفكار العامة . أى التطورات الذهنية للمدرك الكلى .

أما الأشياء الطبيعية فنعرفها بالوصف ، ومن الوصف ما هو غامض مثل رجل ، وما هو محدود مثل : الرجل ذو القناع الحديدى . أما الغامض فيسقطه رسل ويطلق كلمة الوصف على المحدد من نوعيه عموماً . وحينئذ يطلق الوصف ويراد به المفرد (هذا الشيء الفلانى) وتذكر له وحدة خاصة معينة يتميز بها دون أن يُعرف مباشرة من هو (الرجل ذو القناع أو الرشح الفائز ؟) . ومن الأوصاف الأعلام والكليات العامة حين لا نعبر بها صراحة ، حتى تختلف بين الأشخاص ، ولدى الشخص فى أوقات مختلفة (ق ص ٤٩ : حكم بسمارك على نفسه معرفة مباشرة بالتأمل المذكور قبلا ، وحكم صديقه عليه مزاج من معرفة مباشرة لمعطيات الحس فى ارتباطها بأوصاف جسمه وعقله التى يعرفها فيه كشيء طبيعى يدرك بالوصف ، ومعرفتنا نحن له وصفية صرف هى شهادة الغير والتصورات الجزئية والأحكام الكلية والتاريخية عليه) . لاحظوا أننا هنا نبتعد عن المعرفة المباشرة ونوغل فى المعرفة بالوصف على درجات أربع :

١ — فبسمارك الذى عرفه الناس يطرب من معرفة الناس المباشرة لشخص آخر (معرفة مباشرة رقم ٣) .

٢ — وبسمارك الذى عرفه الناس من التاريخ فقط لا نزال نعرف من هو .

٣ — والرجل ذو القناع الحديدى لا نعرف من هو ، ولكننا نستطيع أن نستخلص من صفته هذه أحكاماً كثيرة .

٤ — والرجل الذى عاش أطول مدة — لا يعرف عنه أكثر مما يتضمن هذا الوصف .

والكليات تسلسل يشبه تسلسل الجزئيات هذا ، والمهم هو مبدأ تحليل القضايا الوصفية : « كل قضية فى مقدورنا أن ندركها يجب أن تتكون كلياتها من مجموعة مكونات نعرفها مباشرة » أى أن يكون معنى الحدود التى نستخدمها فى القضية نعرفها مباشرة (مثال بولبوس قيصر) . والوصف أخيراً أهمية تمكيننا من تجاوز حدود تجربتنا الخاصة ومعرفة الأشياء التى حال ضيق التجربة المباشرة دون إدراكها .

أما الاستقراء فنتخلص مشكلته فى إمكان التوسع والتعميم وبالتالى التنبؤ بالأحداث المقبلة ، وتوقع أن وجود (ا) يستتبع دائماً وجود (ب) المرتبطة بها فى تجربتنا (شروق الشمس قدا ، سقوط الأجسام بفعل قانون الجاذبية ...) فإن وجود شيئين فى وقت واحد بصورة مطردة سبب كاف لتوقع وجود أحدهما متى وُجد الآخر فى مناسبة تالية — أى أن كل علة تحدث نفس المعلول فى نفس الظروف ، وإن كان احتمال تخلف المعلول عن العلة مستقبلا يجعل هذا المبدأ موضع شك . أما القوانين الطبيعية (كالحركة والجاذبية) فيطرد وقوع الحوادث فيها بلا تخلف ، ومهمة العلم أن يكشف عن هذا الاطراد Prequancy فى وقوع الأحداث الطبيعية والتنبؤ بالمستقبل على أساس الماضى ، ما دام أن هذا الماضى مستقبل تحقق فعلا . ومبدأ الاستقراء بشطريه اللذين ورد ذكرهما ص ٥٨ وتعديلهما ص ٥٩ يضران بوضوح هذه الفكرة . وعليكم أن تفهموا بعد هذا أن مبدأ الاستقراء قد يبرهن عليه بالتجربة الماضية ، ولكنه هو الذى يبرر لنا الاستدلالات المقبلة ، بمعنى أن ما سبق امتحانه من الأمثلة يصل بنا عن طريق الاستقراء إلى مبدأ عام يتولى هو البرهنة على ما لم نمتحنه بعد . فالاستقراء انتقال مما امتحناه إلى ما لم نمتحنه ، والمعرفة التى تظهرنا بالتجربة الماضية على شيء لم يحدث من التجربة بعد هى اعتقاد لا تؤيده ولا ترفضه ، ولكنه متأصل فى نفوسنا بهذه التجربة .

وإليكم المبادىء العامة الأخرى التى نتخلص لنا بالاستدلال من المحسوسات ، والتى ليس لها من اليقين إلا ما تستمده من التجربة أيضاً ، والتى حين تبرهن التجربة على يقينها وصحتها تصبح هى مبدأ يبرهن به عن طريق الاستدلال منه . هذه المبادىء من الوضوح لدرجة أنها تقوم فى أساس كل استدلال عقلى ، فلا مجال للشك فيها ، لأنها تقوم فى العقل كبديهيات مسلم بها . وأهم هذه المبادىء مايسميه المنطق : قوانين الفكر الثلاثة :

١ — قانون الذاتية Identity ورمزه : (ا) هو (ب) .

٢ — قانون التناقض contradiction ورمزه : ا ليس (ب) و (لا — ب) فى وقت واحد .

٣ — قانون الثالث المرفوع excluded middle ورمزه :